القضية الثامنة

الاستقطاب المزدوج
في الحوار بين الحضارات

حوار دون سن الرشد؟!

- مقدمة.
- استقطاب مزدوج أم أطراف متعددة؟
- لماذا "الغرب" حصراً؟
- أين ذهبت الثقافات الأخرى؟
- ونزعة حصرية في الجانب الغربي أيضاً ..
- حوار دون سن الرشد؟
- مطالب لا بد منها لحوار أكثر فعالية.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة

تتزايد الإشارات إلى الحوار بين الحضارات في الإعلانات الصادرة عن ملتقيات منعقدة شرقاً وغرباً. وأينما ذهبنا ببصرنا صوب هذا المحفل أو ذاك على المستويات الرسمية أو الشعبية وما بينهما، فقد نجد تأكيداً لأهمية التلاقح بين الثقافات في عالم متغيِّر ومضطرب.

لكننا لو أمعنا النظر بعض الشيء لأصبح بوسعنا أن نرسم علامة استفهام كبيرة على مدى دقّة المفهوم المُراد من هذا المصطلح، الذي بات أشبه بشعار برّاق، كثيراً ما يفتقر إلى المنهجية التي تؤهله لأن يُترجم على أرض الواقع بالقدر الكافي.

فعندما يتحدثون في العالم العربي والإسلامي عن "الحوار بين الحضارات"؛ فإنهم يعنون في واقع الأمر أمراً مختلفاً بعض الشيء، قد لا يكون سوى "الحوار مع الغرب"، والذي لا يعدو بدوره أن يُعَدّ في أحسن أحواله أحد مسارات الحوار بين الحضارات.

أما في أوربا، والغرب إجمالاً؛ فقد بات الشرق العربي الإسلامي هو المُراد بالطرف المقابل لهذا الحوار غالباً، مع أنّ اللافتة المرفوعة هي ذاتها كذلك: "الحوار بين الحضارات".

استقطاب مزدوج أم أطراف متعددة؟

لا يسع المتأمِّل إلّا أن يستنتج أننا إزاء حالة من الاستقطاب المزدوج، تختزل الشعار الكبير؛ "الحوار بين الحضارات" بصورة غير واعية، وهو ما لا يخدم هذا الشعار في نهاية المطاف، بل قد لا يعين على تحقيق أهدافه الكبرى.

فمن يطل النظر في بواكير الأدبيّات التي تحدّثت عن "الحوار بين الحضارات" في العالم العربي والإسلامي، وأكثرها كان في البدء مجرّد

obeikandl.com

إعلانات وبيانات وكلمات وأوراق عمل كانت تنزع إلى الإيجاز واللغة الدبلوماسية أحياناً؛ فسيجد أنّ الجانب المقابل الذي يشغل موقع "الحضارات" ليس سوى العالم الغربي أو قريباً من ذلك.

ولعلّنا نستشف ذلك بشكل جليّ في الكلمة التي ألقاها الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى، في الخامس من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤م، في افتتاح فعاليات معرض فرانكفورت للكتاب الذي حدّد العالم العربي ضيفَ شرفٍ. فقد أحسن موسى عندما خصّص كلمته لقضية الحوار بين الحضارات، لكنه اختزل المشهد الحضاري الأممي في الشرق العربي الإسلامي والعالم الغربي، مع أنّ الأمر يتعلق بفعالية يُفترَض أنها عالمية هي معرض دوليّ للكتاب. وفي مستهل كلمته قال الأمين العام للجامعة: «ها هو الشرق يأتي إليكم زائراً، يحمل بعضاً من ثرائه وآدابه وفنونه، يدعو إلى لقاء مع الغرب». ويضيف عمرو موسى قوله: «إنّ لقاءكم اليوم في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب مع الثقافة العربية والحضارة الإسلامية؛ يأتي على هذا الدرب، درب اللقاء الذي رسمته تلك اللحظات ذات الوهج المضيء في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، وليس على درب الصدام أو الصراع فيما بيننا أو بين حضاراتنا».

إنّ هذه المفارقة غير الاستثنائية، تمثل الصيغة الرائجة والمعمول بها، وتكشف النقاب عن أنّ مفهوم "الحوار بين الحضارات" كثيراً ما كان يُطرح بلا تأصيل كافٍ في الجانب العربي والإسلامي، فهو يعبِّر عن انشداد قوي صوب "القطب الغربي"، وترديد، ربما غير واعٍ، لشعار أعرض من فحواه المقصود به.

لماذا "الغرب" حصراً؟

أما لماذا كان الغرب هو المعني أساساً، في الوعي الجمعي العربي والإسلامي، بالطرف المقابل من علاقة الحوار هذه؟ فذلك ما يقتضي شيئاً من التأمّل.

فلا يخفى أنّ الغرب يشغل بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي، الذي ينتمي إلى التصنيف المسمّى "العالم الثالث"، موقعاً مركزياً في الوعي الجمعي. سيبدو هذا جلياً حين النظر الفاحص إلى المداولات والمدارسات الرائجة في أوساط الشرائح العربية والمسلمة، بما فيها شرائح النخبة أيضاً.

ويستمدّ ذلك التمركز الغربي في الوعي الجمعي العربي والإسلامي دواعيه من التجربة التاريخية في العصرين الوسيط والحديث؛ أي امتداداً من "حروب الفرنجة" (ما يُسمّى في أوربا بالحملات الصليبية)، باعتبارها محطة فاصلة؛ إلى العهد الاستعماري، بوصفه المرحلة التي انعكست بقوة على الحاضر الراهن للعلاقات بين الجانبين العربي الإسلامي / الغربي وعلى المشاعر المتبادلة بين العالمين أيضاً.

علاوة على ذلك، سيتّضح لنا كيف أنّ الغرب الأوربي في العصر الحديث كان، بالذات، هو الذي يُعرَض في معظم الأحيان، عربياً وإسلامياً، على أنه الطرف المقابل للذات العربية المسلمة. وبهذا؛ فلم يكن سؤال النهضة في أوساط النخب العربية والمسلمة معزولاً عن إدراك تجربة النهضة الأوربية / الغربية الصاعدة.

بل كان مما غذّى التململ من الضمور الحضاري الراهن في الأمة العربية والإسلامية، إدراكُ ما بلغه "الآخرون" من مراتب الرقيّ والتقدّم، ولكنّ هؤلاء "الآخرين" لم يكونوا في واقع الأمر سوى "الغرب" ذاته.

يعني ذلك؛ أنّ الغرب بما حازه من حظوة قُيِّض له أن يحتلّ أحياناً في الوعي الجمعي العربي والإسلامي، الذي يعاني الاستلاب نحو المركز الغربي، موقع "الآخرين" إجمالاً، وهو ما يُفهَم ضمناً من الصياغة التي قدّمها أمير البيان شكيب أرسلان لسؤال النهضة: "لماذا تأخّر المسلمون وتقدّم غيرُهم؟". فإذا كان من الثابت أنّ التقدّم المقصود في مثل هذا السياق من التناول قد تحقّق للغرب أساساً، وليس لأمريكا اللاتينية أو جنوب آسيا أو إفريقيا جنوب الصحراء

مثلاً؛ فإنّ ذلك يقودنا إلى الاستنتاج بأنّ الحضور الساطع للغرب قد احتل موقع "غير المسلمين" بالكامل، ليتمكّن من تغييب حضور "الآخرين" من خارج الدائرة الغربية عن الوعي الجمعي العربي والإسلامي.

أين ذهبت الثقافات الأخرى؟

في أعقاب هذا السياق تماماً؛ أخذت لافتة "الحوار بين الحضارات" تُرفَع عالياً، ليُقصد بها حوار الجانب العربي الإسلامي مع الجانب الغربي بشكل حصري إلى حد كبير. وما يدلِّل على ذلك هو السياق ذاته الذي يُطرَح فيه الشعار، علاوة على الممارسة العملية لجهود الحوار بين الحضارات أيضاً.

فما إن يَرِد الحديث عن "الحوار بين الحضارات" في المحافل العربية والإسلامية حتى تقفز الإشارات إلى "الغرب" هنا وهناك، بما يفيد الحصر والتقييد لدلالة لفظة "الحضارات" تلك.

وما يعزِّز هذا الاستنتاج أنّ الأغلبية العظمى من مساعي الحوار بين الحضارات التي انطلقت في العالم العربي والإسلامي في السنوات الأخيرة، قد ولّت وجهها شطر أطراف غربية، بحثاً عن شركاء حوار محتملين.

فنادراً ما كان يتم وضع الثقافة الصينية أو الهندية أو اليابانية، أو الثقافات الآسيوية مثلاً، في بؤرة الاهتمام العربي والإسلامي، تماماً كما غابت إفريقيا جنوب الصحراء برمّتها، وأمريكا اللاتينية أيضاً، عن معظم الجهود الحثيثة للحوار بين الحضارات التي تسارعت في العالم العربي والإسلامي منذ نحو عقد من الزمان، على حين ستكون الثقافات الأصلية المهددة بالاندثار أو التي اندثرت بالفعل، بعيدة كل البعد عن الإدراك الذي تستأهله في اهتمامات الداعين إلى حوار الحضارات في العالم العربي والإسلامي، مع أنّ هذه الثقافات التي وُوريت عن الأنظار شريكة هي الأخرى في الميراث الحضاري الإنساني، الذي يقوم على التنوّع.

بل إنّ المفارقة الإضافية تكمن في أنّ الوعي العربي والمسلم بالدوائر الثقافية غير الغربية، كان يمرّ غالباً عبر قنوات غربيّة، كالأعمال المكتوبة التي تُرجِم بعضها، أو المناهج الدراسية المقتَبسة، أو برامج التلفزة وأفلام السينما المتدفِّقة من هوليوود، فضلاً عن الأعداد الكبيرة من الدارسين العرب والمسلمين في الجامعات والمعاهد الغربية. وقد أسفر ذلك عن نظرة "مُستَوْرَدة" إلى أمم أخرى عبر طرف ثالث، وهو ما قاد أيضاً إلى تمرير كثير من الأحكام المُسبَقة والقوالب النمطية الرائجة في الغرب عن أمم أخرى بشكل جاهز ودونما تمحيص.

والمُقلق بصفة خاصة أن يطرأ على الأولويّات العربية والإسلامية في ملف "الحوار بين الحضارات" منذ تسعينيات القرن العشرين، هذا التجاهل للدوائر الثقافية التي تلتقي مع الدائرة الحضارية الإسلامية في مشترك واحد على الأقل اسمه "العالم الثالث". وسيكون من المشكوك فيه أن تنجح فرص اللقاء العربي الإسلامي كما هي مأمولة مع العالم الغربي؛ إذا ما أدار العالم العربي والإسلامي ظهرَه للعوالم القريبة من نبضه، والتي تكاد بعض أرجائها تشاركه الآلام والآمال ذاتها تقريباً.

ومع أهمية عامل "الاستلاب للغرب" هذا، إلّا أنه لا يفسِّر وحده تغييب الدوائر الثقافية الأخرى غير الغربية عن خطاب "الحوار بين الحضارات" في الجانب العربي الإسلامي.

فهذا الاهتمام الكبير المسلّط على القطب الغربي في عملية "الحوار بين الحضارات"؛ يسوِّغه بعضهم بأنّ العالم الغربي يبقى في واقع الأمر هو الطرف الأهمّ، والأبلغ تأثيراً، في المعادلة الحضارية الراهنة على مستوى الكوكب الأزرق برمّته. فهذا "الغرب" بات نقطة الاستقطاب الأممي الراهنة، ومن المنطقي أن تتوجه إليه الأنظار باعتبار مركزيته الكوكبية، وبالنظر إلى يده الطولى في المشهد العربي الإسلامي أيضاً.

ولا يخفى ما تنزع إليه هذه النظرة، الصائبة في جوهر الاستدلال، من تجاهل

غير مسوّغ للدوائر الثقافية الأخرى أيضاً؛ لأنّ المشكلة لا تتعلق بـ"الحوار مع الغرب"، الذي هو مسعى هامّ ومطلوب بكلّ تأكيد، بل مع من يرفعون لافتة "الحوار بين الحضارات" للإشارة إلى هذا المسار وحدَه حصراً، أو مع من ينصرفون إلى "الحوار مع الغرب" بتجاهل مُفرِط للعوالم الثقافية الأخرى.

في محاولة لمزيد من الفهم، سيكون علينا التشديد على خلفيّتين أساسيتين تعزّزان هذا الاتجاه الحصري السائد في العالم العربي والإسلامي، والذي يكاد يقصر جهود الحوار على العالم الغربي وحده تقريباً.

فإذا كان "الحوار بين الحضارات" يُقدّم على أنه الردّ على القائلين بصدام الحضارات أو الساعين إليه، فإنّ الأنظار في "الشرق" وفي "الغرب" ستلتفت، في ردّ فعل، إلى الطرف المقابل، بهدف تعزيز الحوار معَه، على اعتبار أنّ صموئيل هنتنغتون قد افترض أنّ قطبي الصدام الذي تحدّث عنه هما العالَمان الغربيّ والإسلاميّ. إلى جانب ذلك؛ بوسعنا ملاحظة الخلفيّة المتمثلة بإدراك الأزمة الكامنة في العلاقة بين ذينك العالميْن. وقد بلغ الأمر ذرْوَتَه، كما هو ملموس، منذ منعطف الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م.

ففي أعقاب تلك الأحداث تداعت بعض النخب العربية والمسلمة إلى الدعوة إلى تشجيع فرص اللقاء مع العالم الغربي، ولم يكن ذلك بالأمر الجديد، إلّا بالنظر إلى حجم هذه الدعوة والزخم الذي اكتسبته منذ ذلك الحين. وقد تم ذلك في ظلال إدراك حاجتيْن متناميتيْن ومترابطتيْن؛ أولاهما: ضرورة تقديم صورة مقابلة لتلك التي غذّتها الهجمات وما تبعها من تداعيات؛ أي إبراز "صورة مُشرِقة" للإسلام والمسلمين وثقافتهم، في حين كانت الحاجة الثانية: مواجهة الصورة المشوّهة ومكافحة موجة الكراهية التي لاحقت الإسلام والمسلمين في بعض ثنايا الفضاء الغربي مع ذلك المنعطف، وإن لم تكن هذه الصورة وليدة لحظتها.

من هنا؛ أكّدت تلك النخب العربية والمسلمة ضرورة تعزيز الأصوات

المنادية بالحوار والتعاون في المجتمعات الغربية، واللقاء معها، وَسَعَت إلى ذلك تحت لافتة "الحوار بين الحضارات" أيضاً.

ونزعة حصرية في الجانب الغربي أيضاً ..

بالمقابل؛ لم يكن تناول شعار "الحوار بين الحضارات" في الفضاء الغربي معزولاً هو الآخر عن نزعة غير واعية نحو التقييد في مقصده والتحديد في فحواه.

فقد كان يكفي لاستشعار ذلك أن يجري مثلاً استدعاء منعطف ٩/١١ مسوِّغاً للحثّ على "الحوار بين الحضارات"، مع أنّ ذلك المنعطف يُورَد عادةً على أنه مؤشِّر على علاقة متأزمة بين عالميْن حصراً. وما يُعزِّز استنتاجَ هذا التحديد والحصر، تقديم "الحوار بين الحضارات" بوصفه مسعى مضاداً لـ"الصدام بين الحضارات"، الذي هو تطوّر رسم معالمه هنتنغتون بين عالميْن غربي وإسلامي.

ومقابل الموقع المركزي الذي يشغله "الغرب" في الوعي الجمعي العربي الإسلامي، نجد أنّ العالم العربي والإسلامي كاد هو الآخر يشغل موقعاً مركزياً في الوعي الجمعي الغربي؛ إذا ما تعلّق الأمر بالخوف من "الآخر" أو الشعور بالتهديد أو مكامن القلق والريبة. وإن تتعدّد أسباب هذه التراكمات المؤسفة، فإنه لا شك أنّ هذه المشاعر الكامنة تحت السطح الاجتماعي قد نتجت على كل حال جراء تفاعلات تاريخية متلاحقة وصولاً إلى المرحلة الراهنة، وعبر توجيه تعبوي يمكن تتبّع محطاته المثيرة منذ أكثر من ألف سنة، بشكل اتّسم بزخم شديد أحياناً، وشهد تبدّلاً متواصلاً للأطراف المؤثرة في عملية التوجيه تلك، زيادة على استشعار التبايُن الديني والحضاري في أزمنة لم يكن فيها كثير من الشعوب الأوربية مهيّأً لاحتمال خريطة التنوع الأممي والطائفي والثقافي أو التعاطي الإيجابي معه.

هكذا برزت لافتة "الحوار بين الحضارات" ضمن الفضاء الغربي منذ أواخر

التسعينيات، وفي صميمها العلاقة بين العالمين الإسلامي والغربي. بل إنّ الاتحاد الأوربي الذي حدّد العام ٢٠٠٨م لتكون "السنة الأوربية للحوار الثقافي التعددي"، إنما كان باعثه في الأصل العناية بملف العلاقة مع المسلمين (وفق توضيحات قدّمها عضو المفوضية الأوربية يان فيغِل خلال لقاء معه في المفوضية . كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٨م).

حوار دون سن الرشد؟

يبقى القول: إنّ حصر عملية الحوار بين الحضارات في هذه المعادلة مُزدَوجة القطبية؛ أي: "حوار العالمين الإسلامي والغربي"، لا يعكس بأيِّ حال الانطباع بأنّ تجربة "الحوار بين الحضارات" التي يكثر الحديث عنها قد بلغت رُشْدَها، أو حتى قد قامت على قدميها كما ينبغي.

فالإقرار بالتنوّع الثقافي، بمفهومه الشامل، وتشجيعه؛ هو أحد الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها حوار راشد وفعّال ومثمر بين الحضارات، بل يرقى ذلك المطلب لأن يكون ركناً من أركان عملية الحوار ذاتها، وليس مجرد شرط يُؤمَل الأخذ به أو مما تُرجى مراعاته استحساناً.

وحتى من ناحية الإطلاق الأممي لشعار "الحوار بين الحضارات"، نجد أنّ الاقتراح الإيراني الذي اعتمدته هيئة الأمم المتحدة والقاضي بضرورة تشجيع هذا الحوار، وتخصيص عام كامل (٢٠٠١) لفعاليات "سنة الحوار بين الحضارات"، قد اعتُبر بادرة من جانب دولة إسلامية، ترأس منظمة المؤتمر الإسلامي، صوب العالم الغربي. وقد اكتسبت هذه البادرة رمزية إضافية من خلال ماضي العلاقة المتأزمة بين طهران؛ بشعاراتها الإسلامية الثورية، والعالم الغربي، المتحفظ بشدة على نموذجها. ومع ذلك؛ تجدر الإشارة إلى أنّ لجنة الحوار بين الحضارات بالأمم المتحدة، التي مارست عملها في "سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات ٢٠٠١"، قد تميّزت بتنوع نسبي لخلفيات المشاركين فيها، لكنّ دورها وحده لم يكن مؤهلاً لأن ينهض، وفي سنة واحدة

فقط، بعملية كبرى من التواصل الحضاري متعدِّد الأطراف. وما قلّل من فعالية سمة التنوع النسبي التي شُكِّلت على أساسها هذه اللجنة، أنّ عملها قد تزامن مع منعطف الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م، لتُوضَع الجهود المنكبّة على هذا الحوار في سياق تلك العلاقة ثنائية القطبية بين العالمين الإسلامي والغربي.

مطالب لا بد منها لحوار أكثر فعالية

في ضوء هذه الخلفيات فإنّ من بين ما يُرجَى السعي إليه أن يتم تحرير عملية الحوار بين الحضارات من طابع "الفكاك من الأزمة"، الذي يطغى عليها. فحتى عندما ينبغي على جميع الأطراف أن تأخذ المحاذير والتوترات بعين الاعتبار، فإنه ينبغي لهذه العملية أن تخرج عن كونها مجرد ردّ فعل لأطروحة "صدام الحضارات"، التي وضعت العالمين الإسلامي والغربي وجهاً لوجه، أو حتى عن كونها "انعكاساً إيجابياً" لمنعطف ٩/١١.

وبالنظر إلى ذلك كلِّه فإنّ أهمية الحوار بين الحضارات، والآمال المعقودة على ناصيته، تستوجبان ترجمة أدق لهذا المفهوم على أرض الواقع. وفي حين لا يسعنا إلّا الإقرار بالحاجة الماسّة إلى دفع الحوار بين العالم العربي والإسلامي من جانب، والفضاءات الغربية من جانب آخر، فإنه لا مفرّ أمامنا من التذكير بأنّ ذلك المسار ليس بديلاً عن الحوار بين الحضارات، بمفهومه الحقيقي الأشمل، مع أنه بوسعه أن يكون جزءاً أساسياً منه، بل على درجة عالية من الخصوصيّة والأهميّة.

ولا يفوتنا أن نذكِّر بأنّ إضفاء البعد العالمي الجادّ على مساعي الحوار بين الحضارات، من الجانب الإسلامي، سيكون ترجمة فعلية للفهم الإسلامي الذي ينطلق من عالمية الرسالة الإسلامية وإحاطتها. كما أنّ المشكلة المترتبة على حصر الترجمة العملية لشعار الحوار تتعلّق بالعالم العربي والإسلامي، الذي لا ترى شرائح النخب، فضلاً عن عموم جماهيره، سوى الغرب تقريباً، في حين تكاد العوالم الأخرى تتوارى عن الأنظار.

obeikandi.com

ومن هنا، ينبغي أن تتحوّل عملية الحوار بين الحضارات إلى فرصة جادة للتلاقي والتلاقح الفعال بين شتى الخلفيات الحضارية والثقافية، مع الحرص على إشراك الحضارات والثقافات المهدّدة بالضمور أيضاً. وينبغي أن يتم ذلك على أساس تكافؤ الفرص في المشاركة والتحاور؛ لأنّ العملية ذات الطابع التعدّدي يُفترض أن تُدار بطريقة "الطاولة المستديرة"، التي يُحرَص معها على تحاشي التمركز والاستقطاب، وما أكثره في عالمنا.

obeikandl.com